المنهج النقدي الغربي والمقدس الديني

أمينة حاج داود- الجزائر

هذا الكم الهائل المتسارع المتداخل المختلف من التيارات التي عصفت بساحة النقد العربي مؤخرا، وبنصه شعريا أو نثريا، أدت في الكثير من الأحيان إلى ظهور كائنات لغوية شائهة ممسوخة، وتركت النص العربي يتخبط في جداول ومربعات وترسيمات، وكأنما هي تقيده أو تخلع عنه رداء الجمال والفتنة، وتصبغه بمساحيق منهجية يحسبها الظمآن ماء، رغم أننا لا ننكر قدرة هذه المناهج واستطاعتها النفوذ إلى عالم النص العربي ولو اضطرت إلى التنازل عن بعض خصوصيتها لتستنطق هذا النص وتستقرئه، إلا أن هذا الهبوب المنهجي المتضارب كبل الفكر النقدي، وحرمه فرصة إعادة النظر في هذه المناهج ونقدها، وأبقاه حبيس مرحلة التلقي والاستيعاب من دون أن يتجاوزها إلى مرحلة أكثر تقدما كمرحلة نقد النقد، وإيجاد مصبات يلقي بها المنهج تلك الشوائب التي غالبا ما تكون عالقة به، ولا ينفك ينفثها في جسد النص لحظة الاقتران به.

أن ترى ذئباً في الغابة.. فإن هذا شيء بديهي وطبيعي، ولا يبعث على الحيرة أو الحذر أو السؤال، ولكن أن ترى ذئباً يحوم حول بيتك فهنا مربط الفرس! وهنا لابد أن تتوقف، وأن تتخذ كل التدابير وأسباب الوقاية كي تبقى بأمان أنت وعائلتك..!

هذا هو فعلا واقع الحال مع المناهج الغربية التي أغرقت ساحتنا النقدية الحديثة، وأبقت الناقد العربي كمن هو وسط بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، فكلما تقدم جولة في محاولة فهم منهج معين واستيعابه، وكاد يهضمه بزغ إلى الوجود منهج آخر، بحفريات مختلفة وخلفيات مغايرة، وغالبا ما يكون نقيضا للمنهج الأول أو قائما على أنقاضه، فمن البنيوية إلى ما بعد البنيوية، ثم الأسلوبية وبعدها كما قال النقاد موت الأسلوبية، ثم منهج سيميائي فتفكيكي فتأويلي، بالإضافة إلى نظريات القراءة والتلقي.

المنهج النقدي الغربي يطال القرآن الكريم

لم يعد الأمر في تطبيق المنهج الغربي على النص العربي مقتصرا على النصوص الأدبية، بل تعداه إلى القرآن الكريم، ولا أريد أن أقول: النص القرآني؛ لأنه إشكالية أخرى، فإلصاق صفة النصية بالقرآن الكريم قد تجعله موازيا لغيره من النصوص، ما يذهب بشيء من قدسيته، وهذا في اعتقادي خطأ شائع يقع فيه الكثير من النقاد، حينما يقولون (النص القرآني)، والأفضل أن يقال: القرآن الكريم.

لنعد إلى المقدمة التي بدأنا بها هذا المقال، فالذئب هنا لم يعد في الغابة، وإنما نحن نراه يحوم حول مقدساتنا، فجامعاتنا اليوم لا تخلو من دراسات تستنطق القرآن الكريم أو تعالج بعض قضاياه اللغوية، باستخدام المناهج الغربية الحديثة، حتى إن الكثير من الأساتذة والطلبة يلجؤون خاصة في الدراسات العليا أو ما بعدها إلى استخدام القرآن الكريم مدونة يطبقون عليها مختلف النظريات والمناهج التي تلقوها خلال سنوات الدراسة، باعتبار أن المدونة الشعرية والنثرية العربية في مجملها مدونة مستهلكة، تطرقت إليها جل الدراسات السابقة، فأصبحنا نجد دراسة أسلوبية في سورة مريم، بنية النص في سورة الكهف مقاربة نصية للاتساق والسياق، وغيرها من الدراسات السيميائية والبنيوية، وبتنا نلحظ العديد من المصطلحات تلتصق بكلمة القرآن، فأصبحنا نسمع الكثير من النقاد يقولون: الظاهرة القرآنية، والخطاب القرآني...

إن المشكلة ليست هنا، وإنما هي تكمن في أن يكون هناك خطاب آخر في ذهنية الناقد بالموازاة مع القرآن الكريم، كالخطاب الإشهاري مثلا، ثم يأتي باحث ويدرس هذا الأخير دراسة سيميائية، ويأتي آخر ويطبق المنهج السيميائي على ما يسميه الخطاب القرآني، وبالتالي يفقد القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف هالة القدسية التي لطالما أحاطت به، ويصبح في أعين النقاد مجرد مدونة أو نص صالح للمقاربات النقدية.

إشكالية تطبيق النقد المنهجي على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هنا: إذا كان العقل النقدي العربي إلى الآن عاجزا أمام وضع منهج نقدي يتماشى وطبيعة النص العربي وخصوصيته، وإذا كان تطبيق هذه المناهج في كثير من الأحيان يضر بالنص، فلم نسمح لأنفسنا بأن يتربع هذا الدخيل المنهجي ويطال القرآن الكريم والحديث النبوي؟

ألا نخاف أن يكون لهذه المناهج خلفية معرفية وفلسفية قد تلقي بثقلها على كاهل هذه المقدسات فتنحرف بها عن الدلالة الصحيحة التي تحتويها؟

إن قراءة نص شعري قراءة أسلوبية تفضي بنا إلى تقويل الشاعر ما لم يقل أو حتى استخراج واستنباط

معاني ودلالات هو نفسه لم يكن مدركا لها لحظة الكتابة أمر مقبول، ولكن أن نقرأ القرآن الكريم بمنهج غربي قد يفضي في النهاية إلى النزوع نحو الخطأ في القراءة والتأويل؛ فهذا أمر غير مسموح به شرعا وعرفا.

من ناحية أخرى إذا كان تطبيق هذه المناهج مع تهجينها وعدم الخضوع المطلق المتلبد القاصر -كما ذكر الدكتور عبد الملك مرتاض- أمرا ممكنا؛ أفلا ينبغي أولا أن نعالج إشكالية اختيار المنهج؟ فنحن نعلم أن لكل مدونة طبيعة تفرض عليها انتقاء هذا المنهج دون

ذاك، فقد يفتح هذا الباب على مصراعيه أمام طلبة جدد قد يتطاول بعضهم على القرآن الكريم ولو بحسن نية، فنجدهم مثلا يسعون إلى تطبيق المنهج التفكيكي على سورة ما، أو حديث نبوي معين، مع العلم أن هذا لا يصلح؛ لأن بعض النقاد يرون أن هذا المنهج لا يصلح لقراءة الشعر، فكيف بهم وهم يجرون مقاربات وقراءات على سورة من القرآن، أو حديث للرسول عليه الصلاة والسلام!؟

محاولة إيجاد بيئة مناسبة

هذه الإشكالات والقضايا التي أردت أن أثيرها فيما سبق، لا تعني بالضرورة أن نبقى بعيدين عن محاولة الفهم والتوغل أكثر في معاني كلام الله، ولا في حديث نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن يبقى الأمر مقتصرا على التعبد والتلاوة والتشريع فقط، وإنما تعني أن نتعامل معهما بحذر وحيطة كبيرين، خاصة على الصعيد الإجرائي للمناهج، وذلك بأن نحاول في كل مرة العودة إلى علوم الدين والتشريع والتفسير وحتى الإعجاز.

وعلينا أيضاً أن نتعامل مع المنهج في شقه التطبيقي ليس فقط ونحن نجرده من حمولته الفلسفية وخلفياته المعرفية، بل نضع كذلك نصب أعيننا هذه الدعائم التي ارتكز عليها كي لا نخطئ في التعامل مع القرآن الكريم ولا مع الحديث النبوي الشريف؛ لأن النظر إلى المنهج بعين تجريدية هي نظرة قاصرة كما ذكر عباس الجراري في كتابه خطاب المنهج، حيث وصف التعامل مع المنهج أنه مجرد وسيلة للبحث عن المعرفة وفحصها لا تمثل إلا جانبا واحدا من المنهج سماه الجانب المرئي. وقال: إن هناك جانبا آخر غير مرئي باعتبار المنهج أولا وقبل كل شيء وعيا ينطلق من مفاهيم ومقولات وأحاسيس ذاتية.

عباس الجراري

ويبقى السؤال هو سيد الموقف في نهاية هذا المقال: لماذا لا نسعى لوضع منهج بديل ينطلق من النص العربي، ويراعي خصوصيته وطبيعة مواده وخلفياته وخاصة أن مجتمعاتنا العربية عامرة بقامات كبيرة في الفكر والنقد، وتراثنا الأدبي والنقدي زاخر بمختلف الموارد الفلسفية؟ ■

يا عرب.. القدس متى غده؟

عبير حسين إبراهيم - مصر

يا عربُ.. القدسُ متى غده
(أقيام الساعة موعده)
كم زلزل أركان الدنيا
(أسف للبين يردده)
وبكت في الأفق مآذنه
(مما يرعاه ويرصده)
مسرى المختار وقبلتنا
(بالدمع يفيض مورِّده)